يضع خاتم أحد الحاضرين في إناء ويجعل فيه ماء ويرتب فيسمع الحاضرون في ذلك الإناء صوتاً مفزعاً ويرتفع ذلك الخاتم فيقع في حجر صاحبه، فظننت أنه يضع في الإناء تحت الخاتم شيئاً من المعادن يكون له قوة يدفع بها الخاتم فتركته حتى وضع الإناء ووضع فيه الخاتم فقمت فأخذته فلم أجد فيه شيئاً. ثم أمرني أن آخذ إناءً آخر وأضع فيه ماء بيدي وأضع الخاتم من دون أن يمس هو شيئاً من ذلك، فَفَعلْتُ، وتلا، فسمعنا ذلك الصوت، وارتفع الخاتم، ووقع في حجر صاحبه. وله من هذا الجنس عجائب وغرائب. واتصل بخليفة العصر حفظه اللّه وكساه كسوةً عظيمةً، وأعطاه عطاءً واسعاً. وكان يكثر التردد إليّ وأنا إذ ذاك مشتغل بطلب العلم. ثم عزم صحبة الحجَّاج، فوصل إلى مكة، وإذا جماعة من حجَّاج الغرب يسألون عَنْهُ حجَّاج اليمن. ومن جملة من سألوا رفقته الذين حجّ معهم من أهل اليمن فسألوهم عن حاله فأخبروهم أن أباه من أكابر تجار الغرب، وأنه مات وخلف دنيا عريضة. وكذلك وصف لنا من رافقه من حجَّاج اليمن في الطريق من مروءته وإحسانه إليهم في الطريق وشكره لأهل اليمن عند أصحابه وغيرهم ما يدلّ على أنه من أهل المروءات. ومن جملة ما وصفوه أنهم وصلوا إلى البحر فعدم الماء في السفينة وهم بقرب جزيرة فيها ماء عذب، ولكن فيها جماعة من اللصوص قد حالوا بين أهل السفينة وبين الماء. واشتدت حاجتهم إلى الماء ولم يقدر أحد على الخروج، فاشتمل هذا السيد على سيفه وخرج، وأخرج معه قرب الماء، فلما رآه اللصوص هربوا. وكان طويلاً ضخماً حسن الأخلاق أبيض اللون شديد القوة ويحفظ منظومة في فقه المالكية، وله معرفة بمسائل من أصول الدين. وكان يُصمِّم على ما يعرفه، فإذا ظهر له الحق مال إليه. وكنت مرة أنا وشخص عندي كان يحضر عند اجتماعي بالسيد فأخذنا من تحرير أوفاق قد حفظناها منه ولم يكن حاضراً، فلما فرغنا من تحرير بعضها وضعناه في النار حتى التهب ثم جعلناه في الطاقة فلم نشعر إلَّا بطائر قد انقض على تلك الورق التي تلتهب فأخذها وذهب، فعجبنا من ذلك غاية العجب. ولم نقف للمترجم له على خبر بعد ارتحاله. وقد كان يحكي لنا من أحوال أهل الغرب حكايات عجيبة. وكانت مدة الاجتماع به نحو ثلاثة أشهر أو أكثر.

(٢٢٣)

(عبد البَاسِط بن خَليل بن إبراهيم الدِّمشقيّ ثم القَاهريّ)[1]

قال السّخاويّ: هو أول من سُمِّي بعبد الباسِط. ولد سنة ٧٨٤ أربعٍ وثمانين

(١) ترجمته في: الضوء اللامع: ٤/ ٢٤؛ الأعلام: ٣/ ٢٧٠.

وسبعمائة، ونشأ في خدمة كاتب سِرِّها مُحمَّد بن مُوسَى بن مُحمَّد الشّهاب مَحْمُود، واختصَّ به. ثم اتصل بالمؤيد شيخ حُسين، كان نائباً بدمشق، ولازمه حتى قدم معه إلى الديار المصرية، فلما تسلطن المؤيد أعطاه نظر الخزانة والكتابة بها، وسلك مسلك عظماء الدولة في الحشم والخدم والمماليك من سائر الأجناس والندماء. وربما ركب بالسرج الذهب، والسلطان زائد الإقبال عليه والتقريب له. وتكرَّر نزوله غير مرة، فتزايدت وجاهته بذلك كله وزاد تعاظمه حتى صار لا يسلم على أحد إلَّا نادراً، فمقتته العامة وأسمعوه المكروه كقولهم: يا باسط خذ عبدك، فشكاهم إلى المؤيد، فتوعَّدهم بكلّ سوء فأخذوا في قولهم يا جبال يا رمال يا اللَّه يا لطيف، فلما طال ذلك عليه التفت إليهم بالسلام وخفض الجناح فسكتوا عنه وأحبوه. ولا يزال يترقَّى إلى أن أثرى جدّاً، وأنشأ القيسارية المعروفة بالباسِطيّة، وعمَّر الأملاك الجليلة. ثم صار في دولة السلطان طُطُر ناظر الجيش عوضاً عن الكمال بن البارزي في سابع ذي القعدة سنة (٨٢٤)، فلما استقرَّ السلطان الأشرف بالغ في التقرب إليه بالتقادم والتحف، وفتح له أبواباً في جميع الأموال، فزاد اختصاصه به وصار هو المُعوّل عليه. وأضاف إليه الوزارة والأستاذ دارية[1] فَسَدَّهُما بنفسه وبعض خدمه إلى أن مات الأشرف، واستقر ابنه العزيز، وكان من أعظم القائمين في سلطنته. ثم صارت السلطنة إلى السلطان جقمق، فخلع عليه باستمراره في نظر الجيش، ثم قبض عليه وحبسه وطلب منه ألف ألف دينار، فتلطف به الكمال بن البارزيّ وغيره من أعيان الدولة حتى صارت إلى ثلاثمائة ألف دينار. ثم أُطلق وأُمر بالتوجه إلى الحجاز، فسافر بعد أن خلع عليه وعلى عياله وحواشيه في ثامن شهر ربيع الآخر سنة (٨٤٣)، فأقام بمكة سنة، ثم رجع مع الركب الشامي إلى دمشق امتثالاً لما أمر به، فأقام بها سنين، وزار منها بيت المقدس، وأرسل بهدية من هناك إلى السلطان. ثم قدم القاهرة فكان يوماً مشهوراً، وخلع عليه وعلى أولاده، ثم أرسل بتقدمة هائلة، وعاد إلى دمشق بعد أن أنعم عليه السلطان بإمرة عشرين بها. ثم بعد سنين عاد إلى القاهرة مستوطناً لها. ثمَّ حجَّ وعاد فأقام قليلاً، و(مات) يوم الثلاثاء رابع شوَّال سنة ٨٥٤ أربع وخمسين وثمانمائة. وكان رئيساً محتشماً سائساً كريماً واسعَ العطاء ممدوحاً محباً للعلماء مفضلاً عليهم. وكان الحافظ ابن حَجَر من جملة من اتصل به، هو الذي ذكره في فتح الباري لما ذكر كسوة

(١) الأستاذدار (الأستذدار): كلمة فارسية مركبة من «أستذ» أي: أخذ، و«دار» أي مُمسك، ومعنى هذا التركيب: متولي الأخذ وقبض المال (صبح الأعشى: ٥/ ٤٥٧). وقال السبكي: «هو من يتكلم في إقطاع الأمير مع الدواوين والفلاحين وغيرهم. عليه ألَّا يطعمه حراماً، ولا يبيع أستاذه رخيصاً، وأن يرفق بأهل القرى، ويؤدي أمانة اللَّه تعالى التي علَّقها في رقبته، حيث دخل في هذه الوظيفة للفلاحين وغيرهم من رعية الأمير». (معيد النعم ومبيد النقم: ٣٠).

الكعبة حيث قال: ولم يزل الملوك يتداولون كسوتها إلى أن وقف عليها الصالح إسماعيل بن الناصر في سنة (٧٤٣) قرية من ضواحي القاهرة يقال لها بيسوس، كان اشترى الثلثين منها من وكيل بيت المال ثم وقفها على هذه الجهة قال: ولم تزل تُكْسَى من هذا الوقف إلى سلطنة المؤيد شيخ، فكساها من عنده سنة لضعف وقفها، ثم فوَّض أمرها إلى بعض أمنائه، وهو القاضي زين الدين عبد البَاسِط بَسَط اللَّه في رزقه وعمره، فبالغ في تحسينها بحيث يعجز الواصف عن وصف حسنها جزاه اللَّه على ذلك أفضل المجازاة[١]. انتهى. ومن غرائب ما اتفق لصاحب الترجمة أن جَوْهَر القيقباي رام أن يخدم عنده فما وافق، ثم ترقَّى حتى صار صاحب الترجمة خاضعاً له ماشياً في أغراضه راضياً وكارهاً. وكذلك أُحضرت أم العزيز إلى صاحب الترجمة ليشتريها قبل وصولها إلى الأشرف فامتنع فصارت إلى الأشرف، وحظيت عنده فصار المترجم له يمشي في خدمتها، وسار معها إلى مكة يخدمها، وربما مشى، وهذا شأن هذه الدنيا.

(٢٢٤)

(عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد اللَّه ابن مُثَنَّى بن أحمد بن مُحمَّد بن عِيسَى بن يُوسُف ابن عبد المجيد اليمانيّ المخزوميّ تاج الدين)[٢]

ولد في رجب سنة ٦٨٥[٣] خمسٍ وثمانين وستمائة بمكة، ودخل اليمن فأقام بها مدة. ثم قدم مصر بعد السبعمائة بيسير، فأقام بها مدة، وقدم الشام في زمن الأقرم فرتَّب له راتباً واشتغل الناس عليه في العروض والمقامات. ثم رجع إلى اليمن في سنة (٧١٦) وولاه المؤيد الرسولي الوزارة فاستمر فيها إلى أن (مات) المؤيد. وولَّاه ابنه الظافر فقرّبه وعظّمه، ثم صادره المجاهد، واجتاح أمواله، ففرَّ منه إلى مكَّة. ودخل الديار المصرية في سنة (٧٣٠) فدرَّس بالمشهد النفيسي، ثم استوطن بيت المقدس. وما زال يتردَّد بين حلب ودمشق ومصر وطرابلس حتى (مات) في سنة ٧٤٤ أربع وأربعين وسبعمائة[٤]. وكان له قدرة على النظم والنثر، وكان يحطُّ على القاضي

(١) قال السخاوي: «له من المآثر بأقطار الأرض ما يفوق الوصف، من ذلك مدارس في كل من المساجد الثلاثة (بمكة والمدينة والقدس)، وفي دمشق وغزة. (الضوء اللامع: ٤/ ٢٤ ـ ٢٦).

(٢) ترجمته في: فوات الوفيات: ١/ ٢٤٥؛ شذرات الذهب: ٦/ ١٣٨؛ الدرر الكامنة: ٢/ ٣١٥؛ كشف الظنون: ٣١٠؛ الأعلام: ٣/ ٢٧٢؛ هدية العارفين: ٢/ ٤٩٥؛ معجم المؤلفين: ٥/ ٧٣.

(٣) في الأعلام، ومعجم المؤلفين: سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م.

(٤) وفي رواية: سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م.